سيرة فنان

بقلم شفيق الحوت

مغناة فلسطينية   اسماعيل شموط

هذه السطور لا اكتبهـا لليوم القائم ، وانما للغـد القادم . يوم نصبح كلنـا ((ماضيا)) تتحدث عنه الاجيال المقبلة ، كما نتحدث نحـن اليوم عما قبل خمسين سنة او اكثر .

ومن المؤكـد ،ان ابناءنا واحفادنا سيجدون في هذه الفترة التـي نحياهـا اليوم ، مادة غنية بالاحداث ، المثيرة للجدل والحوار، الشاقة على التقييـم .

من هؤلاء من قد يترحم علينـا ويطلب لنـا السعادة والهناء فـي دار البقاء ، ومنهم من قـد يستكثر علينـا طلب المغفرة ، ومنهم من قـد يزم الشفتين ويهز الكتفيـن بلا اكتراث ولا مبالاة .

هكذا الحاضر عندمـا يصبح ماضيا . كالفيلم العتيق ولكن دون صوت ولا مؤثرات ،بل مجرد صور بلهاء قـد تكـون نهايـة سعيدة او نهايـة مفجعة ، وهذا هـو كل مـا يهم المشاهـد : النتيجة .

ولعل غريزة الدفاع عن الذات هي التي تدفع ((الحاضر)) لتخليد ذاته في المستقبل فلا يصبح ((ماضيا)) . ولكن وهنا تكمـن المشكلـة، كيف السبيل الى الخلود ؟ وباي وسيلـة يمكـن الدفاع عن الذات ؟

ما مـن شك ، وعبر تجربة التاريخ الكاملـة ، فلقـد كان الفـن بجميع اشكاله انجح هذه الوسائل وارقاها . والفـن كلمة تقال ، او نغمة تسجل ، او لون يمزج، انه التعبير الانساني الصادر من الاعماق المخاطب للاعماق . وهـو اقوى من الزمان واقوى من القوة ، وارقـى من العلـم .

ولذلك فـان اي امة ، يمكـن الاشارة الى عهد من عهودها ، مـن خلال اسم فنـان انجبته ،هي امة تحمل شهادة الرقي والحضارةبالنسبة لذلـك العهـد .

وكم من فنان كان في امته ، اشهر من قادتها وحكامها . فمنيعرف مثـلا من كـان يحكم المانيا في عهـد بيتهوفن ، او يحكم بولندا في عهد شوبان ، واي نظام حكم كـان يسود فرنسا في عهـد فـان جـوخ ورمبرانت هؤلاء جميعـا اشهـر من ملوك عهودهم وابقى آثرا تمامـا كمايكل انجلو الذي خلـد الكنيسة الكاثوليكية وخلـدتـه اكثـر مـن ((البابا)) الذي امره بتزيين كاتدرائية القديس بطرس .

* * *

ومن هذا المنطلق اكتب اليوم هذه السطور ، لمن يريد البحث عنها بعد خمسين سنة او اكثر . لانسان يرفض الفيلم الصامت الذي لا حوار فيه ولا مؤثرات . لانسان يبحث عن شعب ،في فترة مـا ، من خـلال فنـان حاول تسجيل المرحلـة التي عاش بكل اعماق الانسان المرهف الحس ، ذي القدرة على التعبيـر عـن مشاعره باللون والحركة .

فهـو وحده القادر على الصمود في وجه الزمـن الذي يحـول الافـراد الى ارقام ، لانه بيـن هذه الافراد ، يملك ميزة التفرد والقدرة على البقاء خارج القطيع

انني اكتب عـن ((اسماعيل شموط)) ، فمن يعرف اسماعيل ؟
ان اسماعيل الفنـان معروففي كل اجزاء الوطن العربي ،بل ان

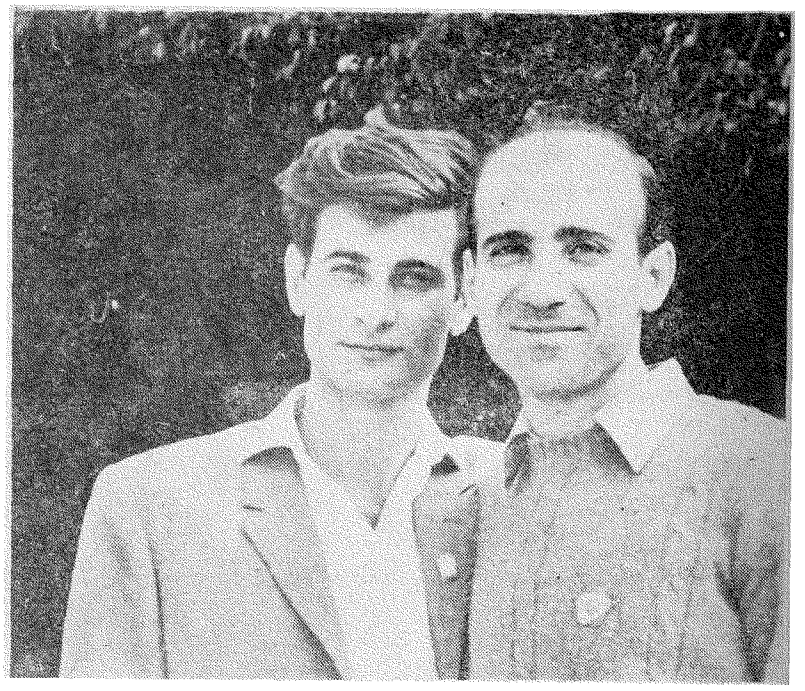

اسماعيل شموط ومحمود درويش

شهرته تجاوزت حدود الوطن الى اوروبا وامريكا . فهو الفنان الفلسطيني الاول الذي حمل قضيته على كتفه لوحـــــات من الالوان والتعابير الماساويـة كالنصراني الذي يحمل الصليب تذكيرا للناس بالمسيح.

ولن انصب في مقالتي هذه على الوانه وتكاوينه واساليب التعبير لديـه . فهذه قضيته كتب فيهـا الكثيرون ، ولعل فيمـا كتب عنه في الفترة الاخيرة ، بعد معرضه في بيروت قبل شهر ، وباقلام النقـاد المتخصصين ما انصف اسماعيل ، ورد لـه بعض ما لديه ، في وقت اصبح فيه الفـن التشكيلي، قضية علاقات عامة اكثر من اي شيء اخر .

غير اني اكتفي بالقبول في هذا الصدد بما جال في خاطري عندما سئلت اثناء المعرض عن رأيي بآخر انتاج لفناننا الشاب : ان القضيـة الفلسطينيـة ، كانت قبل اليـوم هي الداعيـة لاسماعيل وفنه ، ولكنـي اليـوم استطيع الجزم بـان اسماعيل اصبح امام قضيته ينير امامها الدروب المظلمـة فيسكب من الوانه الضوء في عيـون من جهلوا او تجاهلـوا مأساة شعب فلسطين .

وكل ما يهمني في هذه السطور ان اكتب عن اسماعيل الانسان، وعن المشوار الطويل الذي ساره اسماعيل حتى اصبح الفنان الـذي نعرف ونقـدر .

* * *

في اوائل الثلاثينات ، وفي بيت شعبي متواضع من بيوت مدينـة اللد ، كـان اول لقاء لاسماعيل مع الضوء وسط عائلة كادحة ، رب البيت فيهـا يعمل من الفجـر حتى النجر ، ووالدة لـم تعرف مـن دنياهـا سوى ابنائها وخدمة بيتها . وكجميع اترابه في المدينة الصغيرة تعرف اسماعيل على الحياة عبر مدرسة حكوميـة كل هم العاملين فيها تعليم الحرف ، وعبر شارع رملـي نحف به اشجار الصبير على الجانبين حيث كـان الصغار يلعبون ويمرحون في غفلة تامة عمـا يخبئه القـدر لهم على يـد اطفال من اعمارهم يقيمون على بعد امتار من بلدتهم فـي مستعمرة صهيونيـة تعرف باسم ((بيت شيمن)).

ولم يكـن لاسماعيل الطفل ولع بالحرف كمـا يدرسونه ، وكـانت الريشة لا القلم هي التي تستهويه وتشد انامله الصغيرة فوق ورق دفتره الصغير . ولما اكتشف المعلم الشيخ هوايـة اسماعيل وموهبتـه ملاء الحبور قلبه وحدث والد الطفل بذلـك .

وكان حوارا طويلا انتهى بسؤال معلق على شفتي الوالد والاستاذ: وهل باستطاعـة الرسم ان يطعم معدة خاوية ؟ ربـما تمنى الوالد لولده الف مهنة ومهنة .. اما الرسم فلم يكـن يخطر له على بال .

وشب الطفل على اول احساس بالتمزق بيـن مـا يتمنى ومايمكن، بيـن مـا يجب ان يفعل وما يجب ان يفعل حتى ضاق بالمدرسة وضاقت به ، وكم من مرة كان المعلم يفتقـد فيهـا اسماعيل بين افرانـه ليراه غارقـا في بستان من بساتين الخضرة يحاول ان يسجل على اوراقه الصغيرة وباقلامه الملونـة ما ترى عيناه من الوان الطبيعة .

وجاء الطوفان في ١٩٤٨ ، يوم تعرضت اللد الى اكبر مأسـاة سجلهـا الخط البياني في ماساة شعب فلسطين ، يوم هاجمها جيران الامس ، ارانب ((بيت شيمن)) الذين تحولوا الى ذئاب كاسرة .

ولاول مرة في حياته ، وعلى طريق الشوك والعطش بيـن اللـد ورام الله ، انطبعت في عيني الفتى وفي ضميره صور من البؤس والقهر والظلم ، ما ظـن احد يومهـا ، انهـا ستبقى محفورة في احداقه الـى الابـد ، وان ظـن احد ذلك ، فـلا اظن انه تصور بانه قـد يأتي يـوم يمكـن ان ينتشل فيه هذا الطفل نفسه من هاويـة الماساة ليسجلهـا

هالـة الضـوء

ثلاث حواديث

الخالدة التي ارجو ان ينصفها المؤرخون عندما يكتبون تاريخ بلادي .

وهناك بين سواقي الرمل استقر اسماعيل الفتى وهدأت روحه . فاخيرا وجد وعائلته سقفا ينامون تحته . صحيح ان السقف لم يكن من حجر ، ولم يقم على اربع دعائم كما هي سقوف البيوت البشرية ، ولكنه سقف على اي حال .

ولعل امتداد الشاطيء امام المخيم ورماله الناعمة ترفقت باحاسيس الفتى فمدت له ذراعين رحبتين احتضنتا احلامه بعد ان ايقظتها من الجرح الدفين .

وبدأ اسماعيل يخطط لمستقبله من هناك . كان يعرف انه لا بد له ان يعمل ، ولا بد له ان يتعلم . وانه لا بد له من هذا القليل الشحيح من معطيات الحياة ان ينتقل بجسده وروحه الى حيث يجب ان يكون . ولم تكن القضية العامة والاحساس بضرورة خدمة الغير لتغيب عن ذهن الفتى ابن المأساة . فانشأ على حافة الطريق صفا مدرسيا لاطفال المخيم . من اللاشيء حاول ان يوجد شيئا . وكانت اول مدرسة يشهدها المخيم وكل شيء فيها مجاني فلا اقساط ولا رواتب ، بل مشاركة بدائية ، واشتراكية عفوية .

لوحات خالدات .

ولم ينم اسماعيل الفتى تلك الليلة ، بقي محدقا في الظلام لا يعرف كيف ولماذا حصل هذا الذي حصل ، ولا كيف ومتى ستكون النهاية ؟ ومن يكون بلا مأوى وبلا طعام لا يسترسل كثيرا في كوابيسه ولا في احلام يقظته ... فالغد يحمل كل هموم الدنيا ، وما بعد الغد فهو بعيد بعيد .

اين سننام غدا ، ماذا سنأكل ، ومن اين ؟ كانت هذه هي هموم الفتى تصفع وجهه كقبضة من حديد لها رؤوس ابر .

وكانت بداية المشوار ، ومن قاع الدنيا بدا اسماعيل الفتى اولى خطوات حياته بمسؤوليات الرجل المسؤول عن عائلة . فباع الكعك مقابل كعكة يأكلها ، وباع حلوى الصفار دون ان يجرؤ على تذوق شيء منها . كان يلف طول النهار بين المشردين من امثاله يبيعهم ما يحمل فوق رأسه ، وكانوا يردون له الثمن صورا من المأساة تنطبع في خياله الوانا صارخة ووجوها تصرخ وعيونا تدمع بالدم ... فكانت كلها فيما بعد لوحات خالدات عرفناها باسمائها الحقيقية مثل « جرعة ماء » و « الى اين » و « نار وذكريات » و « هنا كان ابي » وغيرها وغيرها .

ولكن ما لنا نقفز بسرعة عن طريق الآلام فنختزل المشوار الرهيب!

فمن رام الله سارت الاقدام الصغيرة وراء الحياة الى « الخليل » فلم تشبع ولم ترتو .. وكان آخر المشوار في رمال خان يونس ، البلدة

الكرامة ـ اسماعيل شموط

ومرت الايام والفتى يسعد بما يؤدي من واجب ، ولا سيما في مادة الرسم التي كانت عزاءه الوحيد . واشتد عود الفتى ونما ، واستطاع ان يدخر واشقاؤه ما يكفي لايصاله الى القاهرة ، ام الدنيا وكعبة الفن.

ولاول مرة في حياته عرف اسماعيل القطار من الداخل ، ولاول مرة يقف ـ كالالاف الذين سبق ان شاهدهم على رصيف المحطة ـ وراء زجاج النافذة يلوح للمودعين لا يلوح للمسافرين كما كانت عادته .

وفي القاهرة بدأت مرحلة التحصيل المضني والحياة الصعبة . وقبل ان يتوجه الى المعهد العالي للفنون الجميلة ، حلم حياته الكبير ، ليسجل اسمه بين الطلبة الراغبين بالانتساب ، توجه اسماعيل الى الشوارع القاهرية يبحث عن عمل ، اي عمل .

ولا بد ان الحظ كان قد خجل من كثرة مجافاته للفتى المصر على الحياة ، فواكبه هذه المرة ، فهدته قدماه الى فنان تجاري يتعاطى رسم « الافيشات » للافلام السينمائية . وكانت لقطة من السماء ، ففيها العمل وفيها التجربة العملية .

وانطوى اسماعيل على نفسه ، بعيدا عن كل الناس ، يعمل في النهار ويدرس في الليل حتى مضت سنته الاولى والثانية ، واذا به ـ وهو لا يدري ـ حديث زملائه واساتذته .

ان هذا الشاب يملك شيئا ما في داخله ... انها الموهبة . ورغم ايمان اسماعيل بذلك ، فان الدنيا لم تسعه عندما سمع ـ لاول مرة مثل هذه الشهادة فيه . وكانت شحنة نفسانية كبرى لانت تحت حرارتها انامله الرشيقة حتى استطاع ، وهو لما يزل طالبا ان يقيم اول معارضه . وكان نجاحا اسطوريا انسى اسماعيل كل ما صد حياته من موانع وعراقيل . لقد تدفق الشلال في نفسه ولن تتوقف بعد اليوم مياه مجرى حياته .

وككل قصص الفنانين ، لا بد من قصة حب تملأ القلب الكبير . ولكن للحب تكاليف ومواصفات لم تكن متوافرة للشاب المكافح . فلا وقت لديه ولا مال ، ولا طقم يليق بالمقام .

ولو توافرت مثل هذه الشروط ، فهل من الممكن ان يكون لاسماعيل فتاة احلام لا تعرف مثله معنى المعاناة وحلاوة مرها !!

والتقى بها .. مثله في الجوهر ، مثله في المأساة والتطلعات ... واهم من هذا مثله في الهواية والهدف .

فتاة اخرى من فلسطين ... مشروع فنانة آنذاك تشق دربها بالقوة متحدية كل الصعاب والتقاليد .

سمراء نحيلة ، جعلت منها المأساة ينبوع مرح وسخرية . لا تخشى اليوم ولا الغد ، ففي قلبها ايمان المكافحات .

كانت زميلة له ، تواكب مسيرته من بعيد لبعيد ، وكان هو يتلهف على رأيها فيما ينتج ويحقق ، دون ان يدري بانه كان يسير على شباك الحب والهوى .

وصحا فجأة على حبه ، ليكتشف انه معلق في الهواء بين ما يتمنى وبين ما تود النفس ويهوى القلب .

كانت امامه فرصة العمر ليكمل تعليمه العالي في ايطاليا ، هناك قرب آلهة الرسم والنحت .. وكانت « تمام » كذلك امامه . فما العمل.

هي بحكم شرقيتها ، كانت اكثر منه واقعية . فلم تهزها المفاجأة وان كانت قد اشعلت نيران قلبها . وكفنانة كانت تعلم ان اي وقفة في طريق الزميل الحبيب هي جريمة لن تغتفر .

وبدون اية دراماتيكية مفجعة اتفقا ، على التقاء بعد رحلة العلم الى روما . اتفقا بدون كلام ودون وعود . فقد أبيا ، كل من طرفه ، ان يربط الاخر بمجهول مستقبله ، ولكنهما في الاعماق كانا يعلمان انهما على موعد اكيد .

وبالفعل التقيا ، وتزوجا ، وامسكا بريشتيهما من جديد ، ليبدأ المشوار الجديد .

ومنذ عشر سنوات او اكثر بقليل ، اصبح الفنانان ـ اسماعيل وتمام ـ في بيتهما ، في مجالسهما ـ في انتاجهما رائدين من رواد حياتنا الفلسطينية الفنية .

فجالا في عالم القضية التي يعيشانها بكل احاسيسهما ، عبر اجمل اللوحات واروعها واصدقها وابسطها . ولعل البساطة هي سرها الفني الكبير . واستطاعا في هذه السنوات القليلة من حياتهما الفنية ان يأخذا مكانهما تحت الشمس من جدارة واستحقاق ، وبعد تعب وضنى .

ان جالستهما تحتار امام من انت تجلس ، امام طفلين بريئين تفتحا على الحياة قبل يومين ، ام امام شيخين في عمر الشباب صبت الدنيا في شرايينهما كل آلام الدنيا وآمالها .

تسأل اسماعيل ، لماذا وكيف ترسم ؟ فيجيب : ولماذا وكيف تتنفس .

اما تمام فتقول : انا ارسم الاشياء والناس لانني احبها : واخشى عليها من الزوال .

* * *

هذه سطور كتبتها للغد ولا لليوم ، وحبذا لو كنت املك الوقت والقدرة لمضاعفة هذه السطور مئات المرات ليكون لي شرف التاريخ لهذين الفنانين .

كفلسطيني اني فخور بان احيا مرحلة من حياتنا ، استطاعت رغم كل تعاستها وبؤسها ، ان تنجب لنا مثل هذين الفنانين . ومن يدري ، فقد يعرفنا ابناؤنا واحفادنا بعد خمسين سنة من خلال ما سجله اسماعيل وتمام .

شفيق الحوت